مـوسـيـقى عـراقـيّـة*

بشرى البستاني

ليت الفتى حجرٌ،
يا ليتني حجرُ
ألتم حين شظايا الدهر تنهمرُ
ألتمّ حين تلوحُ الأرضُ ساقية
شوهاء ينْشج في أطرافها الشجرُ.
هل يعرفُ الشوق إلاّ مَنْ يكابده
ويعرفُ الجوع إلا جائعٌ وَعِرُ؟
أو يعرف الجرحَ إلا نازفٌ عَبَرَتْ
على جراحه نارٌ
وقدها حَجَرُ
يبكي إذا انكسرتْ في بوحها ا
فوتُ الحبيب الذي أوجعته ظَفَرُ
في روعه ندمٌ
في صدره سقرُ
عرارُ ريا وما في ربعها سطروا
ودار ميّة مذبوحٌ بها الأثرُ
تبكي مدارجها،
والليلُ معتكر
غيلانُ، غيلانُ:
هل يُجْدي الفتى حَذَرُ
إذ الصّبا غضّةٌ
إذ عودُها نضرُ
ينبو بها قدرُ
أعنّةُ الليل محمولٌ بها الخطرُ
في طيّها وجعٌ،

في طيّها نُكُرُ.
يا ساريَ البرقِ لا تسألْهُ: «ما
الخبرُ»؟
عاثت بنا النذرُ،
والليلُ ينهمرُ
يا ساريَ البرقِ تلك الخيل تنتظرُ
والنارُ في دمنا المعطوب تنكسرُ
هل يكذب القمرُ؟
نَعم، ويخجل إذ
تبكي على زنده الآثار والصُّوَرُ
يا ليتني حجرُ!

*

على مقعدٍ من يقينْ
تستريح الحماماتُ
مطفئةً نارها البرتقالُ يفجر أشجانه
في النوار الحزين
على معقد من شجون
يستريح الفتى حجراً،
يستريح غباراً بأغنيةٍ ظلّ ينشدها
العابرون
على مقعدٍ من ظنون
تستريح الفتاةُ،
على مقعدٍ من ورود الزمانْ
وينجرح الليلُ في دمها،
ويدور المكانْ

* - موسيقى عربيّة: قصيدة لمحمود درويش من ديوانه **حصار لمدائح البحر**. وأمّا «ما أطيب العيش لو أنّ الفتى حجرٌ/تنبو الحوادث عنه وهو ملموم» فهو بيت للشاعر القديم تميم بن مقبل.

ودجلةُ تلقي بأدغالها في الأمان
غريبين، صوتكَ كان الدثارَ الوحيد
غريبين كنّا:
العراقُ بعيد
يجرحه في دمانا البغاةُ،
المرابون كانوا يُجرونه من دمانا
ونأسره في سواد العيون،
نجرّ عليه غطاءَ سواد العيونْ.
غريبين... كل الجبال تصلّي على
جرحنا
والمرايا شهود..
قالت الأرضُ:
لا تستفقْ يا هواي الأخير
قلتُ كلّ الزمانْ..
صالحٌ للتشرُّد،
كلّ المكان،
صالحٌ للتوحّد،
كل المدى صالحٌ للحُلْم..
وكل المواعيد شاحبةٌ غير
موعد قلبي
ومقفرةٌ غير موعد حبّي.
فلا تبتعدْ، إنّها اللحظة المستحيلةُ
لكنني لن أجيءَ،
لتبقى وحيداً
ويغمر وجْهك حزنٌ جديد..

*

البحرُ يمتشقُ الزبدْ
والريحُ تشعل في السواحل وردَها
والأفقُ يعرف مَوْعِدهْ
والبحرُ لا يعطي لواعجَهُ
ولا يعطي زنابقَه
ولا باع المناديلَ التي نزفت
على شرف الأماسي المترعة
والبحر تقطعه النميمةُ والهزيمةُ
والشّراكُ المغرضة
والبحر تقطعه الليالي،
والبحرُ.. يا لي من رجالي،
أرتديه مرةً،
أو يرتديني
فيه أرقدُ مرةً،
وينام شوكاً في عيوني.
من أين يأتي البحرُ،
كيف يجيءُ
يغمرني ضحًى،
ولظاه يغمرني دجًى،
طوراً أصدّقه، وأطواراً يكذّبني
وأهجره،
وأنكر في حديقته غصوني.
يا أيُّها الوردُ الذي زرع السفين دماً
عصامياً
يسرّح شعرَ موج البحر في الخلجانِ
قال البحرُ للأسماكِ: كوني،
لكنّها رفضتْ فسال الفجرُ من
جرح النوافذِ.
قالت الضفّةُ الأخيرةُ:
جئتُ يا شجر الفصولْ.
يا أيّها البحرُ الذي هجر الحقولْ
حجرٌ أنا احترقتْ أصابعُ عشبهِ في
الجوفِ،
فرّت من أضالِعه الطيورْ
حجرٌ أنا انكفأتْ لواعجُه،
وخانته الهواجرُ والمهاجرُ.
أيّها البحرُ العذولْ،
يا أيُّها البحر افترسْني إذ أتوقُ وإذ
ألوبُ،
وإذ تمورُ النارُ في نبْض الجذورْ
أو في رخام الموجِ،
لا تأخذ إليهْ
قلقي..
امتشقْ لغتي إليه رهينةً
ألقِ المساءَ عليه خَيْمةً
وتوسّدِ الصحراءَ غَيْمهْ.
منفايَ في كفّيه خلف البحرِ،
خلف ضباب أغنيتي
وفي فزع العيونِ المرهفة
وهو العراقُ،
هو العراقُ تبسمتْ كفّاه في وجع
السنابلْ
وهو العراقُ.
ضحكتْ جداولُه على زبدِ الضفاف
المالحة
يا أيُّها المتوسّط المخذول بالحمّى
اتشلْني من عيونِ الرّيحِ
خذْ شفتي وأطلقني على كتفيه
جرحاً عابراً
واسجنْ عيونَ الرّيح فيّ إذا مضيتْ.
يا أيُّها المتوسّط المخمور،
هذي النار تُشعل في عيون البرقِ
آخر زَنبقهْ
في أوج أغنيتي ألوذُ بماء صدركَ،

بالغبار على خطاك المرهقهْ.
يا أيها البحرُ الذي كسَرَ المعابرَ،
هل نعود الى الحدود..
نلقي بصخرة صبرنا عبر المدى؟
يا أيها البحر اللدود
ألق السلام عليّ،
واختصر الردى..!

*

ضاعوا بآخرة النهارْ..
ضاعوا يلمّ الغيم من دمهم شظايا..
والحب للفقراء مأوى
لكنهم زرعوا الطريق اليه بالألغام
فانفجرتْ شظايا الروح،
وارتدت الموانئُ حزنها
وبقيتُ أرقب عبم وجهك.
قالت الأغصانُ: لن يأتي،
وقالت غيمةٌ: سيجيءُ
أول دربنا جرحٌ،
وآخر خطونا برقٌ
وما بين الندى والجرح سكينٌ
وملحمةٌ.
نداؤك شمعةٌ لا تنطفي في القلبِ،
رغم الريح، رغم أصابع الغسلانِ.
يشهد فجرك المصلوبُ بين قبائل
الدجل،
المرابين، الهوانْ.
يا أيها الوردُ العراقيُّ المصانْ..
يا أيها القمر المخضبُ عنفوانْ..
ضاعوا.. وفي عينيّ تنبض من
بقاياهم سنابلْ
ويلوبُ صمتُك، والحروفُ لها
أناملْ
نشوى تلمّ ضفائري
فتفيضُ في الليل الجداولْ.
يا أيُّها الوطن المكابرْ..
أشْرِقْ.. فهذا الليلُ كافرْ..
أشْرِقْ.. فهذا الصدّ كافرْ..

*

حبيبي..
لماذا الجسورُ تلمّ معابرها
في الغروبْ؟
لماذا البلابلُ كانت تلوبْ
على كتفيكَ إذا الشّيحُ غرّدَ
أو هَدَلَ العندليبْ؟
ولماذا ورودك تجرحني في
الوصال،
وفي الهجرِ تجرحني
وتلمّ بقايا المراكبِ
في سفرٍ مستريبْ؟
لماذا إذا نامت الأرضُ في عطرها
أستفيقْ
على نبْضِ قلبك
يرجعني في الضلوعِ
ويشعلني في الدموع؟
لماذا إذا ظلّل النخلُ شرفةَ بيتي
يجيئني وجْهُك قافلةً من عطور
وأرضاً تدور
وعاذلةً مُرّةَ
وغمام بخورْ؟
لماذا إذا غنّت الأرضُ أغنيةَ
العائدين
وكلّمتِ الأرضُ أشجارها من حنينْ
وماجت جبالاً
وغاضت بحاراً
وسالت أنينْ..
قال هذا الفؤادُ
ما لها؟!

*

حبيبي..
لماذا تلمّ المباهجُ فتنتها
إذ تغيبْ
ويشطرني الشوقُ ألف امرأه
تسائلُ:
عطركَ هذا..
أم الليلُ يرخي لقلبي العنانْ
ويفتح نافذتي
فأضيع على سفنٍ من حنانْ؟
أعطرُكَ هذا..
أم الياسمينُ الذي اغتال نجداً
وأسقطها في الرهانْ؟

*

لم يكنْ من خيارْ
عراقيةً كانت السعفةُ الشاردهْ
عراقيةً كانت الريحُ واللاعجهْ.
فسلامٌ على جرحك المستفزّ.
سلامٌ على وجعي
وسلامٌ على وترٍ لا ينامْ.

الموصل